لا يـيـأس المؤمنون [١]

د. محمد بن لطفي الصباغ

إن الإنسان بطبيعته البشرية التي فطره الله عليها ، لا يقوى على الاستمرار في وضع واحد مدة طويلة ، إنه يملّ ويتعب ، .. ويضعف ويعجز .. ويشتهي ويتطلع .. ويعزف ويتكاسل .. هذا هو الوضع السويّ للإنسان .. إنّه في تموّج ما عاش .. ولربما كانت هذه الفطرة هي التي تلوّن حياته بما يُبهجه وبما يمتعه ؛ لأن المحافظة على نمط واحد وعدم الخروج عنه أقربُ إلى الموت ، فالحياة حركة دائمة ، ليل ونهار .. برد وحرّ .. غنى وفقر .. صحة ومرض .. يقظة وغفلة .. طفولة وشيخوخة .. وهكذا .. ولما كان الإسلام دين الله الخالد ، أنزله ربّ العالمين ليكون خاتمة رسالاته إلى أهل الأرض ، وليطبق في عالم الواقع والحياة ، فقد راعى هذه الفطرة مراعاة تأخذ بالألباب .

لن يستطيع الإنسان أن يبقى في مستوى مترفع عن الانحراف .. فإذا وقع في الغلط .. تقدم هذا الإسلام وأخذ بيده ليقرر له أنّ باب التوبة مفتوح ما دامت الشمس تطلع مِنْ مشرقها وما لم يغرغر العبد ، وأن من طبيعة الإنسان الوقوع في الخطأ ، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . وليقرر له أيضاً أنّ من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم أثابوا إلى ربهم ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ**

(١) من كتاب خواطر في الدعوة إلى الله – المكتب الإسلامي – بيروت – ط١ ، ١٩٩٠م

الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣-١٣٦] .

وحرم على المسلم اليأس من رحمة الله ﴿ ... **إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧] ذلك لأن اليأس هو الموت .. وهو الإفلاس .. وهو الفساد .. وهذا نداء الله يلامس أسماعنا وقلوبنا ينادي العصاة الضالين ليعودوا إلى سبيل الطاعة والحق .. ينادي العباد المذنبين نداء ما أرقه من نداء ، وما أرحمه وما أحلاه ﴿ **قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] .

إنَّ الأمل الباسم بالمستقبل المشرق ليحمل صاحبه على أن ينهض بنفسه ليغسل عار الانحراف والضعف ، حتى يصبح من الصالحين الأقوياء . ليس هناك ذنبٌ يجلّ عن التوبة والله عزَّ وجلَّ يدعو الناس جميعاً إلى دار السلام قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [يونس : ٢٥] هذا في حدود ذات الإنسان وتصرفاته .. وكذلك فإنَّ على الذين يقومون بمهمة الدعوة إلى الله ألاَّ ييأسوا مهما تكاثفت في وجوههم الظلمات والعقبات .. إنّ أمام أهل العلم والدعوة صعوبات كثيرة قائمة ، وصعوبات أخرى متوقعة ، وهي تختلف من بلد إلى بلد باختلاف الظروف التي يعيش فيها الناس . هذا أمر لا يشك فيه أحد من أهل البصر والوعي .

وليس في الحياة مطلبٌ ينال بمجرد التمني .. بل لا بدَّ من العمل الدائب ، والصبر المستمر ، والأمل المشرق الوهاج ، إنّ أولى الخطوات التي ينبغي أن يخطوها الداعية في سبيل الله أن يطارد في نفسه أي شبح من أشباح اليأس ، وأن يقتلع جذوره من نفسه وتفكيره .

إن النفس الكبيرة لا تعرف اليأس ، ولا تدع له مجالاً ليتسرب إلى جوانحها .. إنها لترى كل ما يستعظمه الناس هيناً صغيراً ممكن التنفيذ ، وهذا وحده يعطي المرء قوةً لا حدّ لها تجعله قادراً على أن يحقق ما يعجز عنه الكثيرون .

وإذا استطاع المرء أن يتحرر من قيود اليأس وأن يطرده من داخل نفسه فليطمئنَّ عندئذ أنه سار إلى أمانيه بخطى واسعة وأنه مدرك قصده بمشيئة الله . ولماذا ييأس الداعية الصادق وهناك حقيقتان ثابتتان .

أما أولاهما فهي أن الله مع المخلصين الصادقين ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] . ﴿ ... **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص : ٨٣] .

وأما الثانية فهي صلاحية مبادئ الإسلام وموافقتها للفطرة وقدرتها على تقديم الحلول الناجعة لكل ما يشكو منه الإنسان .

ومما يمكّن الداعية أن تمتلئ نفسه بالأمل وأن ينطلق في دعوته بهذه الروح المتفائلة أن يتذكر دائماً أن النجاح لا يقاس بالمظاهر التي قد يتوهمها بعض الناشئة السذج ، وأن التحويل والتغيير لا يتم لسنوات معدودات ، وانتقال المجتمع من عالم المعصية والانحراف إلى صراط الله السوي لا يتم بطرفة عين ، ولا بالمدة التي يتصورها كثير من الناس . ولنا في قصص القرآن والسنة أمثلة حية ناطقة بهذه الحقيقة ، فنوح عليه السلام لم يتحقق له ما يريد مع أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، والغلام الذي وقف أمام الطاغية مدعي الألوهية — كما أخبرنا عن قصته رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح (٢) — قُتِل قبل أن يحقق ما كان يريد ولكنّ هذا كان في ظاهر الأمر فقط ، غير أنه في الحقيقة كان خلال هذه اللحظة الحاسمة هو المنتصر ، فعندما قال الطاغية « باسم الله ربّ الغلام » أصاب منه مقتلاً بعد أن عجز عن إزهاق روحه قبل ذلك مرات ومرات . وعندئذ آمن الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً . وما أكثر ما نقرأ من قصص كان أبطالها موضع السخرية ، أو في أقبية السجون ، أو على أعواد المشانق ، ولكنّ فكرهم كان هو الغالب ومبادئهم كانت هي المنتصرة .

(٢) انظر الحديث في صحيح مسلم برقم ٣٠٠٥ ، وهو أيضاً في باب الصبر من رياض الصالحين .

أيها الدعاة ، املؤوا أنفسكم بأشعة الأمل ونوره الوهاج ، ليفيض كلمات طيبات وتصرفات بناءة . لا تيأسوا من إمكانية النصر مهما رأيتم من تكالب أعدائكم وتسلطهم عليكم ، فإن الله معكم إن صدقتم وصبرتم وأخلصتم ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

قال تعالى على لسان يعقوب : ﴿ ... **وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧] .

إن الذي يطّلع على ما يجري في حياة المسلمين اليوم يتألم أشدَّ الألم ؛ لما يعانونه من كيد الأعداء ، ومحاولتهم سحق قوتهم ، والقضاء على يقظتهم ونهضتهم ، وقتل علمائهم ومصلحيهم ، ولم يقف الأمر عند هذا .. بل إنه ليزيد في ألم المطلع على أحوال المسلمين إعراضُ هؤلاء المسلمين عن الأخذ بأسباب القوة والغلبة ، والتمادي في المعصية ، والبعد عن سبيل الهدى ، ومخالفة نهج الإسلام في جوانب حياتهم المختلفة ولا حول ولا قوة إلا بالله . إن المسلمين يواجهون اليوم أزمة عنيفة تتهدّد وجودهم ..

إنّ قوى خفية وظاهرة تناهض دينهم ..

إنّ معطيات العلم والحضارة المعاصرة تُسَخَّرُ لمحاربتهم .

وإنّ أحوالنا .. ومواقفنا .. وانحرافنا .. كل ذلك يعين العدوّ على تحقيق الكثير مما يريد .

ينبغي أن نعترف بأننا نعاني أزمة خلقية .. وأزمة روحية .. وأزمة فكرية .. وأزمة سياسية . وأزمة اجتماعية .. وأزمة اقتصادية ..

هذا حق وواقع ، والاعتراف به مفيد لنعمل على تغييره وإصلاحه .. ولكنه يتحول إلى خطر عظيم إذا انتهى اعترافنا به إلى اليأس .. إننا نكون عندئذٍ قد حققنا لعدونا كل ما يريد . والقرآن الكريم يقرّر ﴿ ... **إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ**

الكَافِرُونَ ﴾ وقال تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ **قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾ [الحجر : ٥٦] إنّ اعتمادنا على الله تبارك وتعالى يعطينا قوة لا تقهر ، وهذا هو الفرق بيننا وبين الكفار ، إذ نشترك معهم في الألم لما يصيب كلاً منا من الضر ، ولكننا نرجو من الله النصرة إن نصرناه ، وهو لا يرجون شيئاً ، يقول تعالى : ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء : ١٠٤] .

تذكر كتب السيرة أن أبا سفيان حين أراد الانصراف من غزوة أحد أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يومٌ بيوم بدر ، أعلُ هُبَل – أي أظهر دينك – فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجلّ ، لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار » وقال أبو سفيان : إن لنا العزّى ولا عزّى لكم . قال رسول الله ﷺ : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » [٣] . أَجَلْ الله مولى الذين آمنوا ، والكافرون لا مولى لهم كما قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ** ﴾ [محمد : ١١] .

إن الإسلام العظيم الذي حرّم اليأس على أتباعه يناديا في ساعة العسرة التي تمرّ بنا في هذه الآونة أن نأخذ أنفسنا بالعزيمة ، ونواصل الجهد ، ونسير في طريق الحق والخير ، نرجو ما عند الله ، فتهون في أعيننا العقبات والصعوبات ، ونكون على المستوى الكريم الذي أراد الإسلام لنا أن نكون عليه : أعزةً أمام خصومنا ، أذلة بين يدي ربنا ، رحماء بيننا ، متعاونين مع إخوتنا . إن علينا أن نضاعف من جهودنا الفكرية والروحية لنكون روّاداً للأجيال المقبلة ، وطليعة مؤمنة تتقدم صفوف المجاهدين ؛ ولا يجوز أن تقعد بنا تلك الأحوال عن متابعة العمل بسبب

(٣) عيون الأثر لابن سيد الناس ١٨/٢ .

اليأس . إن الزمن يمضي .. ونحن نتقدّم في السن .. ولن يحسَّ الواحد منّا بعد حين إلا وقد أشرف على نهاية العمر .. قارب الستين أو جاوزها ، فلا يجوز أن يبقى الواعون من الصالحين الروّاد على ما كانوا عليه عملاً وسلوكاً ، وفهماً ووعياً ، وإخلاصاً وإيثاراً لما عند الله .. بل لا بدّ لهم من أن يتقدموا صعداً في ذلك كله ، تمضي السَّنة بعد السَّنة ولا نشعر بأننا قد كبرنا سنة واقتربنا من نهاية حياتنا سنة . وإن لم يعمل الواعون المثقفون الدعاة على تقدم الركب منارات تحثّ على الاقتداء ، فسيبقى الحال على ما هو عليه . وقد يزداد تأخراً وتراجعاً .

وفي الدعوة إلى الله طريقان متكاملان ، يكمل أحدهما الآخر :

طريق سلبيّ يردّ على المعارضين ، وينتقد المتقاعسين ، وطريق إيجابي يقوم على بناء النفوس وتوضيح الدعوة .

والملاحظ أن الطريق السلبي هو الذي يستهلك جهود كثير من العاملين للإسلام ، ولا يكادون يعطون الطريق الإيجابي حقه من الاهتمام ، فيساعد ذلك على التمكين لليأس أن يسيطر .

إن الطريق الإيجابي هو الطريق المجدي الذي يعود علينا وعلى مجتمعنا وعلى دعوتنا بالخير والتقدم والنماء ، إنّ الاقتصاد في الأمور السلبية مطلوبٌ منا اليوم .. ذلك لأن مناقشة المعوّقين ، وانتقاد المتكاسلين ، ينبغي أن يبقى في الحدود التي لا تستغرق جهودنا كلها ، إن انشغالنا في ذلك يزيدنا ضعفاً وتقاعساً وتخلّفاً .. وقد يكسو قلوبنا ظلمة ، وهو بكل تأكيد يصرفنا عن العمل الأهم .. إن انشغال إنسان في الجدل والكلام والنقد يمنعه من العمل . وانظروا إلى أكثر القوّالين تجدوهم من أقل الناس عملاً ، والدعوات إنما تنجح بكثرة العاملين الصادقين .. أما المتفيهقون الثرثارون فهم من أبعد الناس عن الهدى والحق ورضوان الله .. هذا بالإضافة إلى أن الإكثار من الردّ والمناقشة ربما يدخل على المرء والسامعين اليأس .. وهذا من أخطر ما يواجه الدعاة إلى الله .

إن الكلام الكثير المملوء بالنقد والقسوة مع قلة العمل قد زهّد الناس في المتكلمين . والناس يتأثرون بالعامل أكثر من تأثرهم بالقوال المهذار . ومن طبيعة البشر أنهم ينفرون من الذي يشتم ويذم .

هذا وإن بروز العلماء والدعاة أمام العامة أنهم أرباب قول لا عمل يفقدهم القدرة على القيام بواجب القيادة الفكرية والتأثير على المدعوّين . وقد ضرب الله لنا مثل الذين يحملون الحق ولا يعملون به فقال ﷻ : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ... ﴾ [الجمعة : ٥] .

وقد قيل : تعلم العلم لتعمل به ، ولا تتعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بوره ، ولغيرك نوره .

والعمل يجعلك على صلة دائمة بما تعلمته ، ومن هنا قيل : العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل .

فعملنا الدائم ، وسلوكنا الموافق لما ندعو الناس إليه عون لنا ولمن نلقى على أن يطردوا شبح اليأس من أمام أعينهم .

إن اليأس أعظم خدمة نقدمها لأعدائنا .

والإسلام عندما يحرم على أتباعه اليأس ، إنما يريد استنهاضهم كلما ضعفت قواهم ، ونزلت بساحتهم الكوارث والمصائب . فالمؤمن العامل الصادق لا ييأس مهما كانت الأحوال سيئة ، ومهما كان من عدوان خارجي وتقصير من قبل المسلمين ﴿ ... **إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧] .

ويقول تعالى : ﴿ **قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] .